شاعر السموّ زهير ابن أبي سلمى

للدكتور عبد القادر الرباعي

(جامعة اليرموك / الأردن)

مازال الشعر الجاهلي يشغل الدارسين والمهتمين بالفن عموما ، وذلك لما له من تميز في الاشراق والبساطة مع العمق والشمول . وهو ككل فن بدائي ممتاز يشكل ، بجداره، الأصول الأولى للفن الشعري العربي الأصيل كله .

اما أعلامه فيُنظر إليهم على انهم الفلاسفة الأول الذين ابتكروا المعاني وشقّقوها بقدرتهم الذهنية، وباخلاصهم في الوصول الى حلول مقنعة لمسألة الانسان والوجود .

وزهير واحد من اعلام الشعر الجاهلي، بل هو واحد من المبرّزين فيه . فهو لهذا يستحق اهتماما مستمرا ودراسة متجددة، لأن مثل هذه الدراسة وذلك الاهتمام قادران على اكتشاف عناصر جديدة تضاف الى تراث هذا الشاعر الخالد .

سأتعرض لزهير في الصفحات التاليات من زاويتين : أدرس في أولاهما زهيراً الانسان : اصوله وفروعه، ثم سماته الخلقية والمسلكية، على اساس ان لهذا دورا كبيرا في تشكيل فكره والاهتمامات الشعرية عنده؛ كما ادرس في ثانيتهما زهيراً الشاعر، بهدف الوقوف على قدراته الفنية التي جعلته شاعرا متميزا في خصائصه ومذهبه .

- ١ -

هو زهيرابن ابي سُلمى (بضم السين) (١) . واسم ابي سلمى ــ والده ــ ربيعة بن رياح بن قرة بن الحارث،من بني مزينة (٢) . وأكد كعب بن زهير نسبه في مزينة بقوله (٣) :

هُمُ الأَصلُ مني حيثُ كنتُ وإنني من المُزَنِيِّين المصفّين بالكَرَمْ

ومزينة احدى قبائل مضر ، فهي منسوبة ــ كما يقول ابن الكلبي ــ الى مزينة بنت كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، التي كانت عند عمرو بن أد بن طانجة بن مضر بن نزار من معدّ بن عدنان ؛ ولم تلد مزينة لعمرو غير عثمان واوس ، وهذا الأخير هو الجد الأصل لزهير (٤).

وذكر عن طريق آخر انمزينة هي امعمروابن ادءوليس زوجته (٥).

اما ابن سلام فيجعل مزينة واحدا من اجداد ربيعة والد زهير (٦) .

وعلى كل حال فزهير مزني النسب،لكنه ولد في بني عبداللهبن غطفان، لان والده كان مع اهل بيته في هؤلاء القوم حتى عرف بهم ونسب اليهم .

---

١ ــ البغدادي : خزانة الادب (ط . دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧) ٢ /٣٣٢ ووردفيها انه جاء في الصحاح : ((ليس في العرب سُلمى (بضم السين) غيره)) .

٢ ــ الاصفهاني : الاغاني (ط . دار الكتب المصرية) ١٠/٢٨٨ .

٣ ــ السكري : شرح ديوان كعب بن زهير (ط . دار الكتب المصرية) / ٦٧

٤ ــ ثعلب : شرح ديوان زهير بن ابي سلمى (ط . دار الكتب المصرية) / ٣٣٠

٥ ــ الاغاني : ١٠/٢٨٨

٦ ــ الجمحي : طبقات فحول الشعراء (ط . دار المعارف . د.ت) /٤٢

وقد ذهب بعض الباحثين واهماً الى انه منهم (٧) . وكان بعض اهل العلم من غطفان يدّعون انه منهم،ويشككون في صحة ادّعاء كعب السابق في انه من مزينة (٨) .

أما انضمام ابي سلمى ، والد زهير ، الى بني غطفان وبقاؤه فيهم، فسببه ــ كما تقول اكثر الروايات (٩) ــ ان ابا سلمى هذا كان قد خرج مع خاله اسعدابن الغدير،وابن خاله كعب،وبعض من بني مرة للاغارة على طيء ، فاصابوا نعما كثيرا واموالا ؛ فرجعوا حتى انتهوا الى ارضهم ، ارض بني مرة ، فطلب ابو سلمى من خاله وابنه ان يفردا له سهما من الغنيمة ، فابيا عليه ومنعاه حقه ، فكفّ عنهما حتى اذا كان الليل اكره امه على الارتحال معه من ارضهم،وقد قال في ذلك :

لتعدونْ إبلٌ مُخَيَّسةٌ من عند سعدٍ وابنه كعبِ
الآكلَيْن صريحَ قومِهما اكلَ الحبارى بُرْعُمَ الرُّطَبِ (١٠)

واتجه الى قبيلته مزينة فلبث فيهم حينا ، ثم اقبل بمزينة مغيرا على اخواله من بني غطفان . ولما ابتعد المزنيون عن ديارهم واشرفوا على ديار غطفان،تطايروا عنه راجعين،وتركوه وحيدا،فقال معتبرا :

---

٧ ــ ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ط . دار المعارف ١٩٦٧) ١/٨٦ وما بعدها .

٨ ــ طبقات فحول الشعراء / ٩٢ . وورد على لسان ثعلب في شرح ديوان زهير ص ٨٦ ان بني عبد الله بن غطفان يقولون،هو منا إلاّ انه يكذّب ادعاءهم ويعدّه باطلا .

٩ ــ الاغاني ١٠/٢٩١

١٠ ــ الحبارى : طائر يقع على الذكر والانثى،ويضرب به المثل في البلاهة والحمق فيقال(ابلهمن الحبارى)

من يشتري فرساً لخيرٍ غزُوها وابتْ عشيرةُ ربِّها ان تُسْهِلا

ثم أقبل حين راى ذلك من مزينة حتى دخل في اخواله من بنـــي مُرّة،وفي بني عبدالله بن غطفان منهم ، وقد كان هؤلاء يسكنون (الحاجر) في نجد (١١) .

فعلى هذا يكون الغطفانيون اخوالا لوالد زهير،وليسوا اصولا له كما زعم بعض الباحثين.اما امّ زهير فكل مانعرف عنها انها من غطفان ، مـن بني مُرّة بن سعد بن ذبيان (١٢) ، وانها اخت او ابنة اخ للشاعر الجاهلي الكبير بشامة بن الغدير . وكان زهير يعجب بشعره ويدعوه بالخال (١٣).

وذكر حمّاد ان بشامة هذا كان اشعر غطفان في زمانه ، وكان رجلا مقعدا حازم الراى كثير المال . ولم يكن له ولد ؛ جمع ثروته من حـزم رايه،اذ كانت غطفان اذا ارادوا الغزو اتوه فامّروه واستشاروه،وصدرواعن رايه ، فاذا انصرفوا قسموا له مثلما يقسمون لافضلهم ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في اهل بيته وبين اخوته ، فأتاه زهير فقال : ياخالاه ، لو قسمت لي من مالك ؟ قال : قد والله يابن اخت قسمت لك افضل من ذلك واجزله . قال : ما هو ؟ قال،شعري ورثتنيه . فمن اين جئت بهذا الشعر؟ لعلك ترى انك جئت به من مزينة ، وقد علمت العرب ان حصانها وعـين مائها في الشعر هذا الحي من غطفان . (١٤) والحدث في هذه الرواية ـ إنْ

---

١١ ـ الاغاني : ١٠/٣٠٩ . وشوقي ضيف : العصر الجاهلي (ط . دار المعارف ، الطبعة السابعة) / ٣٠٠ .

١٢ ـ وكان أبو سلمى تزوج الى رجل من بني سهم بن مرة،او فهر بن مرة،يقال له الغديـر . انظر شرح ديوان زهير / ٥٥ والاغاني ١٠/٣٩٠ .

١٣ ـ جاء في شرح ديوان زهير ص ٢٢٥ ان بشامة عم لامّ زهير،لكن صاحب الأغاني يذكـر في ج ١٠/٣١٢ انه خال زهير.اما ابن سلام فقد نص في طبقات فحول الشعراء / ٥٦٤ على ان زهيرا ابن أخته .

١٤ ـ الاغاني ١٠/٣١٢ وشرح ديوان زهير ٢٢٥ .

كان صحيحا ــ يدلّ على تأثير بشامة في زهير،وعلى أن زهيرا كان شاعرا معجبا به،مما دعا بشامة الى الاعتزاز بأنه امتداده الفني .

ويظهر أن والدة زهير تزوجت بعد وفاة أبيه ؛ فقد ورد في الأخبار ان اوس بن حجر كان فحـــل مضر في الشعر،حتى نشأ النابغة وزهـــــير فأخملاه ، وكان زهير راويته،وكان اوس زوج أم زهير (١٥) .

لم يترك زهير الحاجر في نجد ، أرض أخواله بعد موت والده،بل ظل فيها هو واهل بيته الذين لانعرف منهم سوى أخيه،وكان يدعى اوسا ، وهو اخوه من أمه الغطفانية (١٦) . واخته الخنساء التي عاشت الى ما بعد موته،حيث نظمت فيه مرثية حزينة معبرة (١٧) .

أما زهير فقد تزوج الى أخواله ؛ تزوج كبشة بنت عمار بن عدي ابن سحيم،أحد بني عبد الله ابن غطفان،فهي أم ولده (١٨) ؛ ويبدو انها كانت الزوجة الثانية بعد (أم أوفى) زوجته الأولى التي احبّها كثيرا ، لكن الذي دفعه الى زواج كبشة عقم امّ أوفى (١٩) او انها ولدت لـــــــه ومات أولادها جميعا (٢٠) .

لم يرح هذا الزواج امّ أوفى فدبّت فيها الغيرة وآذت زهيراً كثيرا،مما اضطره الى طلاقها وهو كاره،ثم ندم على ذلك وقال (٢١) :

---

١٥ ــ طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

١٦ ــ شرح ديوان زهير / ٥٥ .

١٧ ــ المصدر السابق / ٣٦٦ .

١٨ ــ المصدر نفسه ٣٢٦ ، ٣٣٥ .

١٩ ــ الموجز في الادب العربي وتاريخه (وضع لجنة من الاساتذة بالاقطار العربيـــــة ، دار المعارف بلبنان ١٩٦٢) ١ / ١٧٩ .

٢٠ ــ الاغاني ١٠/٣١٢ والخبر منقول عن ابن الاعرابي .

٢١ ــ شرح ديوان زهير / ٢٤٢ .

لَعَمْرُكَ والخطوبُ مُغَيِّـــــراتٌ وفي طول المعاشَرةِ التَّقالـــــي

لقــد باليتُ مظْعَن أمِّ أوفى ولكنَّ أمَّ أوفى مـــا تُبالـــــــي

ومن الطبيعي أن يؤثر استمرار هذا الحب لأم أوفى على علاقته بكبشة، زوجته الجديدة . لقد واجهته باحساس المرأة : برمت كثيرا بفتور مشاعره نحوها فعاتبته عتابا مرًّا، ذكّرته فيه بواجب الزوج تجاه امراته التي تخلص لبيتها وتقوم بواجبها . أُمًّا وزوجة ؛ وهذا واضح في أبياته التالية (٢٢) :

وقالت أمُّ كعـــب لا تَزُرْنـــا فـــلا واللهِ ما لَـكَ من مَـزارِ

رأيتُك عِبْتَني وصـــددْتَ عَنِّـــي فكيفَ رأيتَ عِرْضي واصْطِبـــاري

فلم أُفْسِدْ بنيـــك ولـــم أُقـــرِّبْ إليْـكَ من الملمّـاتِ الكِبـــارِ

ويدافع عن نفسه بجواب مقتضب حمله بيته :

اقيمـــي امَّ كعـــب واستقـــرِّي فإنَّـــك ما نَزَلْـــتِ بهـــا بِـــداري

لقد اكد لها أن الذي يحكم معاملته لها هو شعور الزوج الـــــذي يستشعر مسؤوليته بضرورة العمل على توفير الأمان لزوجته ما دامت في داره تقوم بمهامها جيدا .

أما مسألة الحب فليس لها ان تكلفه بها ، ذلك لأن الحب لا يُفرض على الانسان فرضا . ولعل موقف زهير هذا يعكس لنا مفهوم الناس في عصره للزواج والحب على حد سواء ؛ فليس الزواج لتحقيق عاطفـــة الحب دائما، وانما الزواج في كثير من حالاته للانجاب والعناية بشؤون الحياة العائلية والمنزلية فحسب .

وعلى اية حال فقد أنجبت له كبشة هذه ثلاثة ابناء ذكورا، هم: كعب

---

٢٢ ــ شرح ديوان زهير ٣٣٥ .

وبجير وسالم (٢٣)؛أما سالم فمات في حادث شؤم ينقله الرواة على النحو التالي : كان سالم هذا جميل الوجه حسن الشعر،فأهدى اليه رجل بُردين، فلبسهما وركب فرسا خيارا،فمرّ بامراة من العرب في مكان ماء يقال لـه النُّتاءة،فقالت : ما رايت كاليوم قط رجلا ولا بردين ولا فرسا احسن ممـا أرى ، فما مضى قليلا حتى عثر به الفرس،فاندقت عنقه،وانشقّ بُرداه، وكُسرت عنق فرسه ؛ فقال زهير يرثيه ويشير الى الحادثة :

رأتْ رجلاً لاقى من العيشِ غبطةً ... واخطأه فيها الامورُ العظائِمُ

وشبَّ لـه فيها بَنُونَ وتوبِعَتْ ... سلامةُ اعوامٍ لـه وغنائِمُ

وعندي من الأيام ما ليس عنده ... فقلتُ لها مَهْلاً فإنَّكِ حالمُ

لعلكِ يومـا ان تُراعي بفاجعٍ ... كما راعني يوم النُّتاءة سالمُ (٢٤)

إن في الأبيات تذكيرا بأن السرور لا يدوم ، وبأن على الانسان دائما ان يتهيأ لاستقبال الفواجع لأن الدنيا في تقلب مستمر . ونحن على اية حال لا ندري مدى الصدق في قصة مقتل سالم،لكن الثابت لدينا أن زهيراً فجع بابنه هذا فجيعة عظمى،جعلته يقف في الأبيات السابقة عند حالين متناقضين : حالٍ من مُدّت له الدنيا حبل السلامة والغنى ، وحال من بُلّته بالمصائب وفجعته بأبنائه ؛ فالشعور بالأسى العميق كان حتما وراء ابراز تناقض الدنيا السحيق .

أما ولداه كعب وبجير فلحقا الاسلام واسلما ؛ اسلم بجير اولا وتمنّع كعب،بل قال ابياتا يؤنب فيها بجيرا على اسلامه،ويعرّض بالاسلام والرسول . قال (٢٥) :

---

٢٣ ــ العباسي : معاهد التنصيص (المطبعة البهية ١٣١٦ هـ) ٢/١١٠

٢٤ ــ الاغاني : ١٠/٢١٣ وما بعدها ثم شرح ديوان زهير / ٢٤١

٢٥ ــ شرح ديوان كعب بن زهير / ٢ وما بعدها و (وَيْب) كَوَيْل ، تقول وَيْبك ووَيْب لك .

الا أبلِغَنْ عنّي بُجَيْراً رسالةً فهلْ لكَ فيما قلتُ بالخَيْفِ هلْ لكا

سُقِيتَ بكأسٍ عند آل محمدٍ فأنْهَلَكَ المأمونُ منها وعلَّكا

وخالفتَ أسبابَ الهُدى وتبعْتَهُ على أيِّ شيءٍ وَيْبَ غَيْرِكَ دلَّكا

فبلغ رسول الله شعره هذا فتوعده ونذر دمه،فكتب إليه اخوه بجير يحذره ويدعوه الى القدوم على الرسول واعلان التوبة والاسلام . وطمأنه بأن محمدا عليه السلام لا يقتل احدا جاءه تائبا . ففعل ذلك كعب وقال قصيدة جليلة القاها بين يدي الرسول الكريم ، فقبل توبته وعفا عنه،وكساه بردا اشتراه منه معاوية بعشرين الف درهم .

هذا وتذكر بعض المصادر ان اسلام كعب قد أعلن بعد بعثة الرسول مباشرة،وذلك تحقيقا لوصية والده قبل وفاته،وهي تورد على هذا روايتين :

احداهما أن زهيرا راى في منامه وفي اواخر عمره ، ان آتيا اتاه فحمله الى السماء حتى كاد يمسكها بيده،ثم تركه فهوى الى الارض . فلما حضره الموت قصّ رؤياه على ولده كعب ثم قال : إني لا اشك انه كائن من خبر السماء بعدي ، فان كان فتمسكوا به وسارعوا اليه ، ثم توفي قبل المبعث بسنة ؛ فلما بعث رسول الله خرج اليه ولده كعب بقصيدته (بانت سعاد) واسلم (٢٦) . وثانيتها أن زهيرا رأى في منامه أن سببا تدلى من السماء الى الأرض وكان الناس يمسكونه ، وكلما اراد ان يمسكه تقلص عنه؛فأوله نبي آخر الزمان ، فانه واسطة بين الله والناس ، وانّ مدّته لا تصل الى زمن مبعثه ، فأوصى بنيه ان يؤمنوا به (٢٧) . واعتقد ان هاتين الروايتين موضوعتان،وان الخبر الاول المشفوع بأبيات شعرية لبجير هو اقرب الى التصديق منهما . والذي يدفعني لهذا الاعتقاد ، الافتعال الواضح للرؤية

---

٢٦ ــ خزانة الادب ٢ / ٣٣٥ .

٢٧ ــ المصدر السابق ٢ / ٣٣٦ .

من اجل التدليل على تنبؤ بعض الناس بالنبوة قبل وقوعها ، ولربما استفاد واضعها من التقوى التي عرف بها زهير في الجاهلية كما سيأتي .

ومن أخبار زهير أيضا ان كانت له ابنة اسمها (وبرة) وانها كانت شاعرة،فعندما قال زهير :

أرادتْ جوازاً بالرُّسَيْسِ فصدَّها رجالٌ قُعُودٌ في الدُّجى بالمَعَابِلِ

كأنَّ مُدَهْدَى حَنْظَلٍ حيثُ سَوَّفَتْ بأَعْطَانِهَا من جَرِّها بالجَحَافِلِ

فقال زهير من يجيز هذا ؟ فقالت وبرة : يا ابتاه أنا أجيزه،وانشدت :

جدودٌ فَلَتْ بالضَّيْفِ عنها جِحاشُها فقد غَرَزَتْ أَطْباؤُها كالمَكاحِلِ (٢٨)

- ٢ -

ترسم لنا الأخبار وشعر الشاعر صورة جميلة لزهير ؛ فهو من النفر الذين كانوا يحاسبون أنفسهم كثيراً ليقتربوا من الخير،ويبتعدوا عن الشر، ولهذا استقام خلقه ، وباعد بينه وبين الموبقات،كالخمر والميسر والأزلام (٢٩) .

لقد تساوت نفسه وابتعدت عن تدني المجتمع الجاهلي وتساقطه في الحضيض ؛ وبذلك اقترب من الايمان ، وفي شعره ابيات تشير الى انه كان قريبا من الايمان حقا فهو — مثلا — يؤمن بأن هناك إلاها يتدبر الكون ويحاسب على الاعمال،قال (٣٠) :

والمالُ ما خَوَّلَ الإلٰهُ فلا بُدَّ لَه انْ يَحُوزَهُ قَدَرُ

والإثْمُ من شَرِّ ما يُصَالُ بِهِ والبِرُّ كالغَيْثِ نَبْتُهُ أَمِرُ

---

٢٨ — شرح ديوان زهير / ٣٤٥ .

٢٩ — جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (دار العلم للملايين ببيروت ومكتبة النهضة ببغداد ١٩٧٦) ٤/٦٧١ .

٣٠ — شرح ديوان زهير / ٣١٤ .

وهو ــ كما يبدو في شعره ايضا ــ يؤمن بالحساب والعقاب ، وبأن اعمال الانسان مرصودة ومحفوظة بكتاب مدخور (٣١) :

يؤخَّرْ فيوضعْ في كتابٍ فيُدَّخَرْ ليوم حسابٍ او يُعَجَّلْ فينْقَمِ

لقد كان ذا خلق جميل، مشدود برباط الايمان دائما، ذلك لانه يرى ان الانسان قادر على اكتساب خلق حميد اذا ما سعى للتعلق بالخير الذي يريده الاله أن يعم الكون والناس (٣٢) :

عَوِّدْتَ قومك : إنَّ كلَّ مُبَرِّزٍ مَهْما يُعَوِّدْ شيمةً يَتَعَوَّدِ

حَزْماً وَبِرًّا للاله وشيمةً تعْفو على خُلُقِ المسيءِ المُفْسِدِ

وقد بلغ من ايمانه انه خشي عقوبة الله لانه هجا بني عليم بن خباب بدون حق، وكان يقول : « ما خرجت في ليلة ظلماء إلاّ خفت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم (٣٣) » . ولقد اعتقد بعض الباحثين انه كان خاضعا لتأثير النصرانية، كما عده بعضهم نصرانيا، لكن يبدو ان الراي الذي ذهب اليه بروكلمان صواب ، فهو يعتقد بأن تأثير النصرانية كان واقعا في الجزيرة العربية، لكننا لا يجوز لهذا ان نعد زهيرا من النصارى » (٣٤). وكان عادلا يحب العدل ، ويدعو دائما الى اعادة الأمور لنصاب الحق، ولهذا بارك عمل كل من هرم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين تحملا ديات القتلى ، واصلحا بين الحيّين المتخاصمين : عبس وذبيان، بعد حرب دامت اربعين عاما .

يميناً لنِعْمَ السيدانِ وُجِدْتُما على كلِّ حالٍ مِنْ سَحيلٍ وَمُبْرَمِ

---

٣١ ــ المصدر السابق / ١٨ .

٣٢ ــ المصدر نفسه / ٢٧٧ .

٣٣ ــ الاغاني ١٠ / ٢٠٩ وشرح ديوان زهير / ٥٦ .

٣٤ ــ كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي (ط . دار المعارف بمصر د. ت) ١/٩٥ .

تداركتُما عبساً وذُبْيانَ بعْدَمـــا تفانَوْا ودقُّوا بينهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ (٣٥)

ورايه في تلك الديات انها أُخِذت بغير حق،لأن الذي تحمّل دفعها لا ذنب له سوى حبه أن يسود الصفاء بدل الشر :

لَعَمْـرُكَ ما جَرَّتْ عليهِمْ رماحُهُم دَمَ ابن نَهيك او قتيل المُثلَّـــمِ

فكلاًّ اراهُمْ اصبَحُوا يَعْقِلُونَـــهُ عُلالَةَ أَلْفٍ بَعْـدَ أَلْفٍ مصتـــم

تساقُ الـى قَـوْمٍ لقومٍ غرامـةً صحيحات مالٍ طالعاتٍ لِمَخْرَمِ (٣٦)

إنه يستغل هذه الحادثة غير المنطقية لحث المجتمع على رؤية الخطأ في نظامه الاجتماعي؛فلو كان العدل هو الذي يسيّره لما احتاج الى ان يقبـل هذا الأمر الغريب .

إن مطلب العدالة ربما نما مع الشاعر، خاصة وان اخواله كانوا قد ظلموا والده ظلما دفعه الى تصرفات حادة جدّاً،كما مرّ بنا سابقا . وانني أعتقد أن حادثة والده التي كانت السبب المباشر في توطنه بأرض اخواله الى الأبد ، كانت مؤثرة جدا في نفسية زهير وفكره وسلوكه ، ولهذا اصبـح السلام والعدالة مطلبه الأساسي في الحياة والوجود الانساني كله .

ولهذا كان اليفا جدا لمن عرفهم واختلط بهم،مهما كانت مستوياتهـم الاجتماعية ، وعلى اية صفة كانت علاقتهم به ، والمثل الرائع الذي يستأهل التوقف هنا قصته مع راعيه (يسار) : كان الحارث ابن ورقاء الصيداوي، من بني اسد،اغار على بني عبد الله بن غطفان،فغنم فاستاق ابل زهـير وراعيه يسارا (٣٧) مما دفع زهيرا أن يجاهد طويلا لاسترداد راعيه،حيث

---

٣٥ ــ شرح ديوان زهير / ١٤ ومنشم امراة تبيع العطور وقيل : من التنشيم في الشر .

٣٦ ــ المصدر السابق / ٢٥ وما بعدها . العلالة : الزيادة هنا . مصنم : تام . المخـرم : القنية في الجبل .

٣٧ ــ الاغاني ١٠/٢٠٧ ــ ٢٠٩ .

قال قصيدة يهجو بها الحارث بن ورقاء وقومه،ويهدده بغيرها ان لم يعد يسارا سالما،ومطلع القصيدة (٣٨) :

تَعَلَّمْ أَنَّ شَرَّ الناس حَيٌّ يُنَادَى فِي شِعَارِهِمُ يَسَارُ

ويبدو أن الحارث قد تأثر بأقوال زهير فعزم على اعادة يسار ، لكن قومه نهوه وحالوا بينه وبين رغبته،فبعث زهير فيهم قصيدة يهجوهم ويمدح الحارث ويشجعه،ويهيب به أن لا يستمع اليهم . ويبدو أنه نجح في ذلك كما يقول (٣٩) :

ابلغْ لديك بني الصيداءِ كلَّهُمُ أَنَّ يساراً أتانا غيرَ مَغْلُولِ

ولا مهان ولكنْ عند ذي كَرَمٍ وفي حِبَالٍ وفيٍّ العهدِ مَأْمُولِ

من الملاحظ في هذه القصائد أن زهيراً لم ينشد استرداد شيء من أمواله ، لكنه كان شديد الحرص على أن يعود اليه (يسار) فقط ؛ وهذا يدل على الألفة المتأصلة في طبع هذا الرجل،وعلى الوفاء الذي فطر عليه ايضا . فيسار مجرد راع بسيط،لكن اختلاطه بزهير ولّد في ذات الشاعر مشاعر جميلة ؛ خاصُمُ ومالاً بدافع منها حتى يستردّ راعيه المخلص .

هذا وفضلا عن وفائه السابق الذكر لهرم،مدحه لاهله (٤٠) تحقيقا لهذا الوفاء ، عرف عنه شدة وفائه لزوجته (أم أوفى) ؛ فلقد ظل يذكرها بأحسن ما تذكر به أنثى بالرغم من نشوزها وانفصالها عنه ؛ وقد أدى به هذا الوفاء الى مواقف صعبة مع زوجته الجديدة ، لكنه في علاقته بهذه المراة الجديدة اثبت أيضا انه رجل طُبع على الالفة وحسن المعشر ؛ فحين عاتبته

---

٣٨ ـ شرح ديوان زهير / ٢٠٠ .

٣٩ ـ المصدر السابق / ٢٠٨ .

٤٠ ـ انظر مديحه لسنان والد زهير في ديوانه / ١٩٣ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ورثاءه اياه / ٣٢٤ .

على استمرار تعلقه بأم أوفى ـ زوجته القديمة ـ لم ينكر ذلك، بل ذهب في صراحته الى حد أن عرّفها موقعها منه، فهي ليست اكثر من امراة تزوجها للانجاب ، وهو معها يقوم بواجبات الزوج على أكمل وجه، كما مرّ بنا سابقا .

وكان زهير متعففا، يترفع عن الماديات في علاقاته دائما ؛ لقد ظهر ذلك جليًّا في تعامله مع ممدوحيه، وخاصة هرما ؛ فلقد أكثر زهير من مدحه حتى حلف هرم الاّ يمدحه زهير إلاّ اعطاه، ولا يسأله إلاّ اعطاه، ولا يسلم عليه إلاّ اعطاه عبدا او وليدة او فرسا ، فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، وكان اذا مر به في ملأ قال : « عموا صباحا غيرَ هرم وخيركم استثنيت(٤١) » .

والى جانب هذا كان زهير سيدا كثير المال ، فقد اغناه هرم ثم آل اليه نصيب من مال خاله بشامة بن الغدير، كما يذكر صاحب الأغاني (٤٢) ؛ وكان كريما يصرف ماله فيما يراه واجبا . روي ان زيد الخيل بن المهلهل الطائي تمكن من بجير فأخذه وهو لا يعرفه، ولما عرف انه ابن زهير حمله على ناقته وخلّى سبيله، فأتى بجير اباه فأخبره خبر زيد وما فعله ، فأرسل زهير بفرس كميت كان لكعب من كرام الخيل الى زيد . وكان كعب غائبا فلما جاء انكر على والده ذلك وقال : كأنك اردت ان تقوي زيدا على قتال غطفان، فقال زهير : هذه إبلي فخذ ثمن فرسك وازدد عليه ، وقد عنفت كعبا زوجته فقالت : أما استحييت من ابيك في سنه وشرفه أن تردّ هبته ؟

وقد اثر هذا الموقف في زيد الخيل فقال :

فلولا زهيرٌ أنْ أكُـدِّرَ نِعْمَـةً لقارعت كعباً ما بقيتُ وما بُقّى (٤٣)

---

٤١ ـ معاهد التنصيص ٢/١١٠ .

٤٢ ـ الاغاني ١٠/٣١٢ .

٤٣ ـ ابو علي القالي : ذيل الامالي (طبعة مصطفى اسماعيل يوسف بن دياب ، الطبعة الثالثة) / ٥٣ وما بعدها . وشرح ديوان كعب بن زهير / ١٢٦ وما بعدها .

ويقال ان زهيرا مات قبل البعثة بقليل،ويحدّد بعضهم وفاته فيجعلها قبل البعثة بسنة واحدة (٤٤) ، أما بروكلمان فيقول : ان « الراجح انه مات قبل ظهور النبي بزمن طويل (٤٥) » وهناك رواية تجعل وفاته بعد البعثة،وتزعم ان الرسول عليه السلام مرّ به وهو شيخ فقال : اللهم اعذني من شيطانه (٤٦) ؛ وهي رواية مشكوك فيها على اية حال ، هذا وقد رثته اخته الخنساء بأبيات جيدة تقول فيها (٤٧) :

فلا يغني توقّي المرءِ شيئا ولا عَقْدُ التميم ولا الغُضَارُ

اذا لاقى منيته فأمسى يساق به وقد حقّ الحِذارُ

ولاقاه من الأيام يومٌ كما من قبلُ لم يَخْلُدْ قُدارُ

وهكذا انتهت حياة شاعر عاش للخير،واتخذ من شعره اداة لنشره وتمكينه في مجتمع كُثُر فيه الجهل والظلم والشر .

- ٣ -

لزهير ديوان شعر طبع عدة طبعات (٤٨) ، ولعل أجودها طبعة دار الكتب التي اعتمدت على رواية ثعلب،وهي الطبعة التي اعتمدتها في دراستي

---

٤٤ ــ شرح ديوان زهير / ٥٦ وخزانة الادب ٢/٣٣٥ .

٤٥ ــ تاريخ الادب العربي ١/٩٥ وانظر ايضا تاريخ الاداب العربية لنالّينو (ط . دار المعارف بمصر / ٧٨ .

٤٦ ــ معاهد التنصيص ٢/١١٠ .

٤٧ ــ السيوطي :شرح شواهد المغني (دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٦) ١/١٣٤ ، والمغضار : كان احدهم اذا خشي على نفسه علّق عليه خرقا الحمر .

٤٨ ــ انظر مقدمة ديوان زهير / ٣٠ ــ ٤٤ . وكتاب احسان القص : زهير بن ابي سلمى...

هـــذه .

على الرغم من ان قضية الحرب والسلم اخذت القسط الاكبر مـــن اهتمام الشاعر،فنظم فيها شعرًا كثيرًا مثّلته قصائده المدحية،إلاّ انّ شعره يحوي ايضا اغراضا اخرى؛كالرثاء والغزل والهجاء والفخر والحكمة . هذا بالاضافة الى ان شعره يحوي عناصر مختلفة من معارف عصره ومعالمه ؛ فشعره مثلا من اكثر الأشعار الجاهلية اهتماما بالكتابة ، لقد كررها اكثر من مرة وبخاصة في مقدماته الطللية؛مثال ذلك قوله (٤٩) :

لمن الديار غشيتهـــــا بالفدفـــــد كالوحـــي في حجر المسيـــل المخلد

وزهير فيشعره يشغل بقضايا انسانية بالغة الدقة والخطورة في مجتمع جاهلي بدائي؛كانت تسوده ــ الى حد كبير ــ شريعة باغية قاسية ؛ لذا احتاجت من الشاعر قدرا كبيرا من التجرد والتفكير لوضعها وضعا مؤثرا . فالشاعر متألم جدا للأوضاع السيئة التي ينحدر اليها مجتمعه ؛ وقد تمثل تألّمه هذا بصـــور شعرية توحي بأن طريق الخلاص هي الســـير مع حس السلام الذي بدا يتخذ جانبا ايجابيا فاعلا . ومع كل ما من شأنـــه ترسيخ قيم أو مثل عليا فوق الأرض . ومن هنا التقى كلام الشاعر فـــي

... (دار الفكر بدمشق ١٩٧٣) ١١٩ وقد عثرت على نص في خزانة الادب ٢ / ٢٢٤ يشير الى ديوان زهير وشروحه . قال البغدادي (وديوان شعر زهير كبير وعليه شرحـــان ، وهما عندي والحمد لله والمنه ، احدهما بخط مهلهل الشهير الخطاط صاحب الخـــط المنسوب) ولم يذكر في مخطوطات الديوان المكتشفة ما يشير الى هذه النسخة .

٤٩ ــ شرح ديوان زهير / ٢٦٨ .

دعوته الاصلاحية مع الخُلُق الاسلامي الذي جاء بعيد موته . قيل : انشد عمر بن الخطاب،رضي الله عنه،قوله في هرم :

اثنـي عليـك بمـا علمـت وما اسلفت في النجدات من ذكـر

والستـر دون الفاحشـات ولا يلقـاك دون الخـير من ستـر

فقال عمر : ذلك رسول الله (٥٠) . وكلام عمر هذا هو من نوع كلامه حين سأل بعض ولد هرم ان ينشده بعض مدح زهير في أبيه ؛ فلما انشده ما طلب قال : إن كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن والله ان كنا لنحسن له العطاء ؛ فقال ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم (٥١) .

ومن هنا قال عبد الملك بن مروان،ما سر من مدح بما مدح زهير آل ابي حارثة من قوله :

على مكثريهم رزق من يعتريهـم وعند المقلّين السماحةُ والبـذلُ

ألا يملك امور الناس (٥٢) . يعني الخلافة) .

ان المعاني التي عاشت وقدرت هذا التقدير في العصور اللاحقة،لمعانٍ انسانية كثيفة وان بدت بسيطة مكشوفة ؛ فلا عجب اذن ان تلتقي بعض معاني شعره مع بعض الآيات القرآنية الكريمة . لقد لاحظ بعضهم موضع التقاء قوله :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنـه ولو رام أسبابَ السماء بسُلّمِ

مع فحوى الآية الكريمة « اينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج

---

٥٠ ــ الاغاني ١٠/٢٠٤ .

٥١ ــ المصدر السابق ١٠/٢٠٥ ويقال ان عمر قال ايضا (ولكن الطلل التي كساها أبـوك هرما لم يبلها الدهر) .

٥٢ ــ المصدر نفسه ١٠/٢٠٦ .

مشيدة (٥٣) ».والاحظ التقاء قوله :

فان الحـــق مقطعـــه ثـــلاثٌ، يمـــينٌ او نفـــارٌ او جـــــلاءُ

فذلكـم مقاطـــع كـــل حـــــق ثـــلاث كلهن لكم شـــــفاء (٥٤)

بالبعد الاجتماعي والانساني الذي عليه القول الالهي : « ولكم فـــي القصاص حياة ».ولربما كان هذا وراء قول ابن قتيبة : « وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره،ويدلّ شعره على ايمانه بالبعث » (٥٥) .

ويبدو ان اتجاهه الخلقي كان وراء تفضيل كثير من الناس له . لقـــد فُضل على الشعراء لانه ــ كما قيل ــ : « كان ابعدهم من سخف،واشدهم اجتنابا لحوشي الكلام (٥٦) » .

والواقع ان زهيرا كان شاعرا فذّاً ، فلقد فهم بخبرته وذكائه قضايا الانسان والوجود ، وعبّر عنها تعبيرا ادبيا اكسبها سمة البقاء ، وهذا ما جعله قائما في عقول الناس على مر العصور .

وشاعريته اصيلة عريقة تمتد في جذورها وفروعها بشكل جعلها متميزةفي تاريخ الشعر العربي القديم . قال ابن الاعرابي : « كان لزهير في الشعـــر ما لم يكن لغيره ، كان ابوه شاعرا ، وهو شاعر ، وخاله شاعر ، واخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعـــران ، واختـــه الخنســـــاء شاعرة (٥٧) » . وقد ذكر ايضا ان عقبة بن كعب بن زهير المعروفبالمضرب

---

٥٢ ــ ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي (دار المعارف بمصر ١٩٥٦) ٤٠٦،والاية في النساء / ٧٨ .

٥٤ ــ شرح ديوان زهير / ٧٥ . والاية من البقرة / ١٧٩ .

٥٥ ــ خزانة الادب ٢ / ٣٣٢ .

٥٦ ــ المرزباني : الموشح (دار نهضة مصر ١٩٦٥) ٩٥ .

٥٧ ــ شرح شواهد المغني ١/١٣٣ ومعاهد التنصيص ٢/١١٠ .

كان شاعرا ، وانه كان لعقبة هذا ابن يقال له العوام،وكان شاعـــــرا أيضا (٥٨) .

لقد اجتمعت لزهير عناصر وراثية في الشعر اعطته استعدادا فطريا لقوله ؛ ويبدو انه احسّ مثل هذا الاستعداد مبكرا ، فأخذ نفسه به وعوّل على تأصيله وتهذيبه حتى غدا شاعرا مذكورا . لقد وضعه ابن سلام في الطبقة الأولى تاليا لامرىء القيس والنابغة (٥٩) .

اما ابو الفرج فقد ذكر ان الرواة لم يتفقوا على تفضيل أي من امرىء القيس او النابغة عليه ؛ قال : « هو احد الثلاثة المتقدمين على سائـــر الشعراء ، وانما اختلف في تقديم احد الثلاثة على صاحبيه ؛ فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني (٦٠) » .

وفي التراث النقدي ما يؤيد قول ابي الفرج ؛ فقد جاء في طبقات ابن سلام نفسه ان اهل النظر قالوا : « كان زهير أحصفهم شعرا . . .واجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق (٦١) » .

وقد نسب صاحب خزانة الادب الى ثعلب تقديم زهير ، كما أورد محاورة بين جرير وابنه عكرمة مؤداها:ان جريرا كان يقدّم زهيرا ويجعله اشعر الجاهليين (٦٢) . وممن كان يقدّمه ايضا قدامة بن موسى الجمحي ، الذي كان ـــ كما يقول ابن سلام ـــ من أهل العلم (٦٣) . وكان كل من عمر

---

٥٨ ـــ الاغاني ١٠/٣١٤ وخزانة الادب ٢/٣٣٣ .

٥٩ ـــ طبقات فحول الشعراء / ٩٣ .

٦٠ ـــ الاغاني ١٠/٢٨٨ .

٦١ ـــ طبقات فحول الشعراء / ٥٣ والثعالبي : خاص الخاص (دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٦) ٩٦ .

٦٢ ـــ خزانة الادب ٢/٣٣٣ .

٦٣ ـــ الاغاني ١٠/٢٨٩ .

ابن الخطاب ومعاوية يسميه بشاعر الشعراء او أشعر الشعراء (٦٤).وقد زعم حماد انه لم يدرك احدا من اهل العلم من قريش يفضل على زهير من الناس احدا في الشعر،لكنه يقول : غير ان قريشا قد اتفقوا على تفضيل زهير والنابغة معا (٦٥) . وكان ابو عمرو ابن العلاء يقول : « كان اوس فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه (٦٦) » . وسجل بعض النقاد القدامى احكاما نقدية توازن بين زهير وغيره على اساس الدوافع النفسية التي اشتهروا بها،فقيل : « كان امرؤ القيس اشعر الناس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب (٦٧) » .

والنقد الحديث لا يأخذ بهذه الآراء المطلقة لانه يدرك اختلاف الشعر والشعراء من حال الى حال ؛ فالمسألة كلها ترتبط بقضايا دقيقة في الشاعر ذاته،وفي الموضوع الذي يتناوله،والجو العام الذي يقال فيه الشعر . ولكن تظل الاقوال التي فاضلت بين زهير وغيره على اساس من الضوابط النفسية خاصة أقرب الى الاحتمال والتقبل من تلك التي اعتمدت التعميم اسلوبا في احكامها .

وعلى مستوى الصنعة الشعرية يصادفنا الراي المنسوب الى عمر ابن الخطاب في تفضيل زهير،حيث قال : « كان لا يعاظل في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ، ولم يمدح احدا الا بما فيه (٦٨) » . لقد اعجب به لأن شعره مستوٍ،وفصيح اللفظ،وناطق بالصدق الحقيقي عن مجريات الاحداث واوصاف الناس . ان هذا النقد ــ بالرغم من أن نظريات الشعر

---

٦٤ ــ شرح شواهد المغني ١/١٣١ .

٦٥ ــ شرح ديوان زهير / ٨٦ ، ٣٢٦ .

٦٦ ــ طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

٦٧ ــ العسكري : كتاب الصناعتين (عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٢) ٢٣ .

٦٨ ــ الاغاني ١٠/٢٨٩ ومعاهد التنصيص ٢/١٠٩ .

الحديثة قد تجاوزته بكثير — يظلّ نقدا يقدم اوليات اساسية في الحكـــم النقدي المعلل .

وقد لاحظ الأقدمون تأثر زهير في الصنعة بطريقة اوس بن حجر — وكان زهير راوية له — وهي قائمة على البروز الحسّي،والاستقصاء للصور وتفصيلاتها (٦٩) . وعرف عن زهير أنه صاحب مذهب التحكيك الشعري في العصر الجاهلي ، إذ به عُدَّ واحدا من الذين أطلق عليهم الأصمعي «عبيد الشعر » . (٧٠) قيل إنه كان ينظم القصيدة في ليلة او شهر،ثم يتركها عنده عاما كاملا لا يذيعها في الناس إلاّ بعد أن يعاود فيها النظر مرات عديدة . ولهذا سميت قصائده بالحوليات او المقلدات والمنقحات (٧١) . وحتى نحكم حكما مقنعا على عمل زهير هذا،لا بد لنا من الاجابة عن مسألة هامة في المعرفة النقدية : هل الشعر ابن الملكة الشعرية وحدها،ام ابن الصنعـة الحاذقة فقط ، ام ابنهما معا ؟

ان الاجابات العصرية لا تميل الى فصل الصنعة عن الموهبة ، وهي تعدّهما اساسا متحدا لكل فن ناجح،وبهذا يكون زهير واحدا من الذين وعوا باكرا دورهم الشعري الريادي،لذلك جاء شعره ناضجا متقنا ، ولقد لاقى قدرا كبيرا من الاعجاب في عصره وبعد عصره . ان الأساس الفني لمذهبه اهتمامه كثيرا بالصور الكثيفة التي قادت الى خلق الترابط العضوي فـي القصيدة الواحدة،لانها تشيع معاني عميقة شديدة التشابك والترابـط .

---

٦٩ — شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ط . دار المعارف بمصر الطبعـــة الرابعة / ٢٨) وما بعدها .

٧٠ — الشعر والشعراء ١/٢٣ .

٧١ — الجاحظ : البيان والتبيين (عبد السلام هارون ١٩٣٨) ٢/٩ ومعاهـــد التنصيص ٢/١١١ وخزانة الادب ٢/٣٣٥ . وابن جنـــي : الخصائص (ط . الهلال ١٩١٣) ١/٣٣٠ .

ان مثل هذه المعاني تؤدي بتفاعلها وتجاوبها وتجاذبها الى الكشف عن الرموز والايحاءات التي تؤلف الوحدة المعنوية الباطنية للقصيدة : فرصدنا لحركات النفس داخل القصيدة الواحدة يقودنا الى الوقوف على قضايا انسانية بعيدة بعدا جذريا عن الموضوعات الظاهرية التي نتحدث عنها .. وهذه هي القيمة المتوقعة لكل ترابط صوري كهذا الذي يشيعه زهير باتقان نادر .

بهذا تغدو الاقوال التي اتهمت معلّقته كما اتهمت غيرها من المعلقات بالتفكك (٧٢) ، اقوالا قاصرة، عاجزة عن الرؤية الشمولية التي تعتمد اكتشاف الحقيقة من خلال حل العقد والتداخل الشعري العجيب .

ولكن الرواة والنقاد اخذوا على زهير عدة مآخذ في شعره، تنحصر في مجالات اللغة والسرقات والفن وغاياته بشكل عام :

ومن مآخذهم اللغوية استبشاعهم كلمة (حقلّد) في بيته (٧٣) :

تُقِيٌّ نَقِيٌّ لَـم يُكَثِّـر غنيمـــة بِنُهْكَةِ ذي القُربـى ولا بِحقلّـدِ

ومنها انكارهم عليه قوله (ركك) في بيته :

ثم استمروا وقالـوا إنّ موعدَكُـمٌ ماءٌ بشرقيّ سَلْمَى فَيْدُ او رَكَـكُ

لأنه حكى بعض الاعراب انه قال : إنما هو « رك » (٧٤) . ولست ارى وجها لهذه المآخذ . فـ (حقلد) كلمة عربية مستعملة، قد تكون ثقيلة على اللسان، لكنها في موضعها في البيت ادت ما أراد الشاعر ؛ اما (رك) فثقلها

---

٧٢ ــ الموجز في الادب وتاريخه ١/١٨٥ .

٧٣ ــ كتاب الصناعتين / ٣٠ والبيت في الديوان / ٢٣٤ والحقلّد : الضيق البخيل ، والسيء الخلق .

٧٤ ــ الموشح / ٦١ وحكي عن بعض الاعراب انه قال : انما هو (ركّ) والبيت في الديوان / ١٦٧ .

هو الذي دفع الشاعر الى فك ادغامها . والشاعر — على اية حال — اطمأن على وضع كل كلمة في موضعها من شعره ، لذا فان اي مأخذ لا يكون بافراد الكلمة ومحاسبته على جمالها او قبحها منعزلة ، وانما في موضعها من القصيدة ،وهذا مبدأ غير الذي حوكم على اساسه زهير كما هو واضح .

واما في نحل الشعر فقد روي ان الأصمعي كان « يرى أن ابياتا من قصيدة زهير الميمية (امن ام اوفى ...) ليست له ،وانما هي لصرمة بن انس الانصاري (٧٥) » . واتهم ايضا بالاغارة على شعر غيره من الشعراء ،فقد جاء على لسان ابي عبيدة قوله : كان قراد بن حنش من شعراء غطفان وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدّعيه ، منهم زهير بن ابي سلمى ادعى المقطوعة التي مطلعها :

إنّ الرزيّةَ لا رزيّةَ مثلَها ما تَبْتَغي غطفانُ يومَ اضَلّتِ (٧٦)

والمقطوعة في ديوان الشاعر ، وقد ذكر انها في رثاء سنان ابن ابي خارجة ،مع زيادة بيت على الأبيات التي رواها ابو عبيدة وهو :

ومُلَعَّنٍ ذاقَ الهوانَ مُدَفَّعٍ راخَيْتَ عُقْدَةَ كَبْلِهِ فانحَلّتِ (٧٧)

ومع تقديم وتأخير في الأبيات ، ثم مع اختلاف في رواية بعض الالفاظ والعبارات .

وهذا امر يرتدّ الى مسألة النحل والانتحال في الشعر الجاهلي . ومن الصعب ان يجزم الانسان فيها براي وتظلّ خاضعة للفرض والتخمين . على ان مما يضعف احتمالات كون الأبيات لقراد ان احدا لم يقل بذلك سوى

---

٧٥ — مصادر الشعر الجاهلي ٣٢٨ عن كتاب المعمرين / ٦٦ . وهناك قصيدة اخرى منسوبة للانصاري في ديوان زهير / ٢٨٤ .

٧٦ — المرزباني / معجم الشعراء (عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠) ٢٠٥ .

٧٧ — شرح ديوان زهير / ٣٣٤ .

ابي عبيدة،وان الابيات في الديوان مزيدة ومختلفة بعض الاختلاف،ومقرونة عند زهير بمناسبة ؛ ولم ترد اية اشارة من ثعلب ، شارح الديوان ، تشير الى اتهامها على غير عادته .

اما في مجال السرقة الشعرية فيذكر الرواة ان زهيرا اخذ ابياتا ممن سبقه او عاصره من الشعراء.من ذلك ــ مثلا ــ قول امرىء القيس (٧٨) :

فلأْيًا بـلأْيٍ ما حملنا غلامنـا على ظهـر محبوك السراة محنَّبَ

اخذه زهير فقال :

فلأْيًا بـلأْي ما حملنـا غلامنـا على ظَهْر محبوكٍ ظِماءٍ مفاصِلُـه

والمسألة هنا ترتبط بمفهوم السرقات الشعرية قديما وحديثا ، لان هذا المفهوم ليس واحدا في العصرين؛فبينما يعدّ النقد القديم التأثر والتأثير في الشعر سرقة معيبة،ينظر اليها النقد الحديث على انها طبيعية،بل ربما كانت عامل اغناء كبير في الشعر ؛ لأن حصيلة هذا الفن تلاقح المشاعر والمواقف والافكار الانسانية . وهو لا يفترض السرقة في الشعر ابدا ، لانه يعتبر الشاعر مسؤولا عن كل حرف يستخدمه. وهو ــ على اية حال ــ لا ينظر الى الشعر نظرات جزئية تتوقف عند التقاء شاعرين عند كلمة او جملة،لأن الشاعر الذي يصدر عن تجربة ذاتية حية لا بد ان يحدث شيئا ما فيما يتأثره،وذلك ليحوّله الى عالمه الخاص المفروض من المواقف الذاتية . فزهير تصرّف ببيت امرىء القيس تصرفا يبدو قليلا،لكنه اذا قرن الى السياق كله ونظر اليهما نظرة شاملة،امكن ان يقال ان التجربة الكلية المتكاملة في القصيدة هي التي فرضت مثل هذا التصرف ؛ عندها يغدو الشعر كله ملك زهير؛ يحاسب عليه ويحاكم به .

---

٧٨ ــ انظر هذين البيتين وغيرهما من الابيات مجموعة في شرح ديوان زهير ١٥ ــ ١٧ المقدمة.

واما في المجال الفني فقد اخذوا عليه اضافته (احمر) الى (عاد) في قوله :

فَتُنْتَجَ لكمْ غلمانَ اشأمَ كلهـــم كأحمـرِ عـادٍ ثـم تُرْضِعْ فَتُفْطِمِ

قائلين : (ان ثمود لا يقال لها عاد ، لان الله عز وجل انما نسب قدارا الى ثمود » (٧٩) كما خطأوا قوله :

يخرجْن من شَرَباتٍ ماؤها طحل على الجذوعِ يَخَفْنَ الغـم والغرقا

قائلين : « ظن ان الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق (٨٠) » وهذا خلاف الواقع .

انهم ــ كما يبدو من نقدهم لشعره هنا ــ لا يفرقون كثيرا بين الصدق الحقيقي والصدق الفني . فالشاعر ــ فنيا ــ لا يتقيد بسرد الواقع كما كان وانما كما يمكن ان يكون من جهته ؛ ومن هنا لا يعيب زهيرا ان وضع (عاد) بدلا من (ثمود)،لانهما في خياله ترمزان الى معنى ذهني واحد هو الشر الرابض في الأرض ؛ ومن هنا اصبحت الواحدة تعني الثانية عنده .

كما لا يعيبه أيضا ان خالف المفهوم السائد في تفسير خروج الضفادع من الماء،لانه وهو ينظم القصيدة التي منها البيت،اراد هذا التفسير لحاجة خاصة به . فالذي يجب ان يحاسب عليه الشاعر هو مدى ارتباط الجو الذي يستحدثه بدوافعه ومواقفه ؛ اذ لا بأس حينئذ من تحوير الواقع او استبداله بواقع جديد يخترعه خيال الشاعر وعواطفه . ان عدم وضوح هذا المفهوم في اذهان كثير من النقاد الذين درسوا زهيرا هو الذي دفعهم الى محاكمته على أساس محاكاة الواقع ، وبالمعنى الحرفي لهذه المحاكاة، فأخطأوا في أحكامهم النقدية عليه .

---

٧٩ ــ طبقات فحول الشعراء / ٧٣ والموشح / ٥٦ .

٨٠ ــ كتاب الصناعتين / ٧٢ .

- ٤ -

هذه صورة متكاملة لزهير الانسان وزهير الشاعر ، وهي صورة تحوي مضمونا واحدا هو « السمو » : فلقد كانت افكاره ومواقفه الاجتماعية تصدر عنه وتهدف الى انجازه على مستوى العصر كله؛فبالسمو ــ كما عبر زهير في شعره مرارا ــ يعرف الانسان موقعه من الحرب والسلام ، وبه ايضا يدرك ابعاد ايجابيته في تفاعله مع غيره ممن يؤلفون معه وحدة اسمها المجتمع المتكامل . وكان ايضا يطبّق السمو في خلقه . يُرْوَى انه كان يقول : ما انا بأشعر من النابغة . (٨١) ويروى ايضا انه كان محبوبا ومحترما ممن عرفه (٨٢) . كما كانت مناهجه في الابداع الفني تتصف بالسمو ايضا ، فاذا وعينا ان السمو الفني يعني النتيجة التي يتوصل اليها شاعر يجتهد في تعمق تجربته واتقان وسائل فنه حتى تخرج؛حين تخرج ، وهي صاعدة الى قمم الابداع؛ومتجاوزة كل ما قد يسمها بالابتذال والسوقية ، ادركنا كم كان حظ زهير من السمو الفني عظيما .

ان احساسي بصفة السمو في شعره فكرا وفنا هو الذي دفعني لاطلاق لقب (شاعر السمو) عليه ؟ فزهير شاعر متميز باخلاصه لعصره واخلاصه لشعره ، لذا فهو ما زال بحاجة منا الى دراسة جديدة واعية هادفة تستقصي شعره وتستخرج منه كنوزه الثمينة .

د. عبد القادر الرباعي

---

٨١ ــ شرح ديوان زهير / ٣٢٦

٨٢ ــ خزانة الادب ٤/.١٥ وذيل الامالي /٢٣ وديوان كعب بن زهير/٢٦